

إن الله قسم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم

بسم الله الرحمن الرحيم

أ- (المخلُّق) يعني: أكثر من أسلوب المعاملة بين البشر - خلافاً لما يظن أكثرهم -، يبين ذلك قول الله تعالى عن لسان الكافرين: (إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأُولَيْنِ) [المشعراء: 137] أي دينهم، ويؤكدده قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تصف حال النبي صلى الله عليه وسلم: "كَانَ خُلُقَهُ الْقُرْآنَ" أي: كان القرآن منواجه في حياته؛ اعتقاداً وعبادة ومعاملة (لا في المعاملة وحدها)، وقال الله تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) [المقلم: 4] أي: دين.

وإذا قُصد بالمخلُّق أسلوب المعاملة فإنما ذلك من باب تخصيص العام، ولو أصلح العبد خُلُقَه فيما يتعلق بحق الله عليه وفيما يتعلق بحقوق الخلق عليه لرضي الله عنه وأرضاه وأرضى عنه الناس:

وحق الله على عبده محكوم بأقدار الله الشرعية، وأولها وأهمها أن يعبد الله وحده لا شريك له في خالص لله نيته وقوله وعمله، صلاته ونسكه، محياه ومماته، وحياته المعبد فيما دون ذلك محكومة بأقدار الله الكونية، فلا بد له من الرضا بقسمة الله له منها "فإن رضي فله الرضا، وإن جزع فله الجزع".

والرضا بالقسمة (من قدر الله الكوني) ضمان للسعادة الدنيوية وباب من أبواب السعادة الأخروية، والرضا بالقسمة (من قدر الله الشرعي) ضمان للسعادة الأخروية وباب من أبواب السعادة الدنيوية فضلاً من الله ونعمة.

قال الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخِفُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ توعِدُونَ * نَحْنُ أُولُو أُولِيكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ * نَزَّلْنَا مِنْ غَيْرِ رَحِيمٍ * وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا الْمُسِيئَةُ ادْفَع بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٍ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعْذَبِ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [فصلت: 30-36].

ونعمة الله على عبده (بالمخلُّق العظيم) أعظم من نعمته على عبده بالمال والممتع، فالأولى خير محض، ولما يمنحها الله إلا من يحب، والمثانية قد تكون خيراً وقد تكون شراً، قال الله تعالى: (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي * وَإِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي) [الضجر: 15-16]، (فإن ما نسوا ما ذكروا به فتحن على هم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذنهم بغتة فإذا هم مبلسون) [الأنعام: 44] فهذه يمنحها الله من يحب ومن لا يحب.

ومنذ أدركتُ هذه الحقيقة لم أجدُ في أقدارِ الله الشرعية والكونية إلا الخير وحسن العاقبة، وكثيراً ما ذكرتُ نفسي ومن ابتلاهم الله بتذكيري (مع كثرة خطئي ونقصي) أن الحياة مثل قطعة النقد المعدنية لا تخلو من وجهين، وجهٌ قد يريده العبد ووجه قد لا يريده، فإن وجه نظره وفكره إلى الوجه المرغوب فيه لم ير في الحياة إلا ما يسعده، وإن وجه نظره وفكره إلى الوجه المرغوب عنه لم ير في الحياة إلا ما يشقيه وكان حرياً أن لا يشكرن عم الله عليه {وإن تَعُدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهُ} [النحل: 18]، وأكثر شقاء العبد بدنياه مصدره: المتطلع إلى ما لم يقدره الله له والانشغال بذلك عن ذكر وشكر ما أسبغ الله عليه من نعمة.

ب- تذاكرنا مرة هذا الأمر العظيم المارق بين السعادة والشقاء: فوَكَّدَ الفريق مريِّع الشهراني - زاده الله من فضله - بيئتين من الشعر:

هَبَّتِ الرِّيحُ فَمَلَّاحٌ شَمَّكََا ۖ طُولَ مَسْرَاهِ وَمَلَّاحٌ شَمَّكَرُ

ليس في المريح سرورٌ أو أسى ۖ إنما في المنفس ما ساء وسرُّ

قدرُ الله واحد على المملَّاحِ ذُ؛ كلاهما من الله عليه بإرسال الريح تسوق السفينة ولو شاء لأسكن الريح فظلت راکدة على ظهر البحر، ومع جريان السفينة يطول المسرى والسهر والتعب، فأحدهما وجه نظره وفكره إلى المسهر والتعب فشكا، ووجه الآخر نظره وفكره إلى منة الله بإرسال الريح والانتفاع بالسفينة التي أجزاها الله بها فشكر.

ج- وقرأت مرةً مقابلة مع شيخ تجاوز الثمانين وشاباً في الثلاثين يرويان ذكرى اشتراكهما في رحلة مع الملك خالد رحمه الله بين مكة والرياض، وكان الشيخ المثقف المترف لا يذكر إلا الهواء النقي وسماء الليل الصافية ونجومها المتألئة والحياة المفترية العزيزة المنال، وكان الشاب المثقف المترف لا يذكر إلا التعب والغبار والتخلف الحضاري للبدو.

د- وقبل سنوات انتشر في أمريكا كتيبٌ صغير كأنما كُتِبَ للأطفال (ولكنه صالح للجميع)، يروي قصة فأرين كانا يرتادان مكاناً تحت الأرض وجدوا فيه قطعة كبيرة من الجبن ظللاً يأكلان حاجتهما منها، وفي أحد الأيام لم يجدوا بقية طعامهما؛ أما أحدهما فظل في مكانه يتميِّز غيظاً وهمماً وأسفاً على ما فات (ولما سبيل لعودته) حتى هلك جوعاً، وأما الآخر فانشغل عن الغيظ والمهم والأسف (للماضي) بالبحث عن طعام آخر (للمستقبل) حتى وجده في مكان آخر.

هـ- بين يدي مثال أقرب إلى الحقيقة والواقع، ربما كنت أولى بحكايته: أقامت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ندوة عن دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله دعت للاشتراك فيها قليلاً من العلماء وكثيراً من المفكرين والحركيين والحزبيين الموصوفين بالإسلاميين، وكان خير ما أنتجت جمع وطبع مؤلفات المجدد رحمه الله، واختار أكثر العلماء وطلاب العلم الدعاة إلى الله زيادة التعرف والتعريف بهذه الدعوة المباركة، واختار أكثر الحركيين ما يختاره أكثر المشاركين في الندوات والمؤتمرات: مجرد الحضور.

وكان من خير الفئة الأولى:

(1) الأستاذ محمد بهجت الأثري من العراق، عضو المجمع العلمي العراقي والمصري والسوري والمغربي، ورث من شيخه الآلوسي تصحيح الاعتقاد، ولم يفرط فيه - فيما أعلم - حتى لقي ربه وقد بلغ من العمر تسعين عاماً، شارك في الندوة عارفاً بقيمة ما شارك فيه، وساهم فيها ببحث نادر عن دعوة ودولة التوحيد والسنة الأولى في الأرض وفي خير بقاعها (جزيرة العرب) منذ ألف سنة، بحث نادر في لغته الجميلة المرصنة، ونادر في دراسته العلمية الموجزة للدعوة التجديدية منذ نشأتها حتى استوت على ساقها دعوةً ودولة تعجب الدعاة على منهاج النبوة ليغيظ الله بهم المنحرفين عنه (وهو الميقين من الوحي) إلى منهاج المظن من الضكر البشري.

قال رحمه الله: (وجد محمد بن عبد الوهاب القدوة الحسنة في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمله وجهاده وصبره، فالتزمها بكل [قواه] متابراً ستين عاماً إلى أن لقي وجه ربه، وقد أطبق جفنيه وراية [الإسلام] ترفرف على جزيرة العرب، ودولة التوحيد قائمة تنتظم البلاد) ص 37 مجموع دار البشير في الدعوة إلى الله على منهاج النبوة 1417-الأردن.

وقال رحمه الله: (واقع التاريخ يقرر أنه رجل التوحيد والوحدة [الرجل] الذي رفض المتفرق في الدين رفضاً حاسماً، فلم يكن من جنس من ينشئون الجماعات والأحزاب ليضيفوا إلى أرقام المذاهب والطرائق الممزقة رقماً جديداً، ولكنه دعا لتحقيق الرقم المفرد الذي لا يقبل التجزئة ألا وهو الإسلام، والإسلام طريقة واحدة لا تتفرع ولا تتعدد) ص 14.

وقال رحمه الله: (وكأن الله الأخر المخبر كله لمن هو أهله من أمراء الجزيرة... الأمير محمد بن سعود فبايعه على أن ينصره ويؤزر الإسلام ويحميه، وأنشأ الله على يده الدولة المسلمة التوحيدية في جزيرة العرب بعد غياب عنها دام أكثر من ألف عام، لتعود جزيرة العرب كما بدأت مركز إشعاع على العالم، وليبقى الملك في عقب هذا القائد إماماً بعد إمام ما لزموا نهج الإسلام الصحيح... لقد كان التقاء [المحمديين] توفيق قدرٍ لقدّر لئنفاً أمر الله على يديهما معاً) ص 47-48، مجموع البشير (الدعوة إلى الله على منهاج النبوة - ط. عمان).

(2) الأستاذ د. وهبة الزحيلي من سوريا، أستاذ الفقه وأصوله في كلية الشريعة من جامعة دمشق؛ شارك في الندوة عارفاً بقيمتها وأهلاً للمشاركة فيها، وساهم فيها ببحث شامل عن تجديد الدين في القرن الثاني عشر من الهجرة النبوية منذ بدء التجديد حتى أذن الله بقيام دولته في عهد محمد بن سعود و خلفائه في المرحلة الأولى، وحتى أذن الله بتجديدها في عهد الملك عبد العزيز رحمه الله وأبنائه من بعده نصر الله بهم دينه.

قال أثابه الله: (كان ابن عبد الوهاب - بحق - زعيم النهضة الدينية الإصلاحية المنتظر، الذي أظهر موازين العقيدة الشرعية الناصعة، وأبان حقيقة التوحيد الخالص لله عز وجل، وأن العبادة هي التوحيد، وحول الشرايع للعمل الكامل بالقرآن والسنة ونبي [الشرك] والمبدع، والعودة إلى الحياة الصالحة الأولى... فكانت أعمال ابن عبد الوهاب وثبة جبارة وقفزة رائعة لتصحيح خطأ الناس في العقيدة والعبادة)... وتلقى ابن عبد الوهاب دورسه الأولى على فقهاء الحنابلة في العيينة، ثم في مكة والمدينة، ثم في البصرة، وكان المعلم الذي أثر في تكوين شخصيته - بعد ذلك - الفقيه الشامي الجريء أحمد بن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية... وقامت ذوات الدولة

السعودية بالتعاون بين ابن عبد الوهاب وابن سعود في الدرعية، وفيها التحقيق العملي لفقهِ ابن حنبل وابن تيمية حتى عادوا بالإسلام إلى سيرته الأولى... وكان توفيقاً إلهياً عجيباً لابن عبد الوهاب ذلك التلازم بين الدعوة الجديدة وقيام الدولة السعودية... وقد أضاف ابن عبد الوهاب إلى مبادئ [دعوة] ابن تيمية مجهوداً خاصاً تجلّى في [إعلانه] الحرب ضدّ الشرك و[البدع] والخرافات [بسياف] الزعيم محمد بن سعود... ولقد حوصرت هذه [الدعوة] حصاراً شديداً واستخدمت الدولة العثمانية والي مصر محمد علي أداة للقضاء على دولتهم؛ من أجل مصالح اقتصادية، ولتحقيق نفوذ وسيطرة العثمانيين، ودفاعاً عن مصالح سياسية ومادية، لا غيراً على المدينين ولا نصرةً للدينين). (مجموع دار البشير - في الدعوة إلى الله على منهج النبوة - 1417هـ ص 57-67 ط. عمان - الأردن).

3) الأستاذ د. عبد المحليم عويس من مصر، المستشار بالجامعة الأزهرية، قدّم بحثاً فريداً عن أثر تجديد الدين والدعوة في جزيرة العرب على الجزائر بعد دراسة دقيقة للعلاقة بين دعوة ابن عبد الوهاب السابقة في القرن الثاني عشر ودعوة (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) اللاحقة في القرن الرابع عشر من الهجرة (وعلى رأسها: ابن باديس والابراهيمى) رحمهم الله جميعاً وأجزل ثوابهم.

قال أتابه الله: (لم تكن دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب إلا دعوة إلى العودة الصادقة الواعية إلى الحقيقة الشرعية في مصدرها الثابتين الخالدين: الكتاب والسنة، ودعوة إلى التخلص مما خلّفته قرون التخلف من شوائب أصابت بناء المسلم الداخلي... فأصبح مسلماً [مشركاً] يقرأ القرآن ويؤمن بالخرافات ويصلي لله ويتقرب لعبيده... ركّز ابن عبد الوهاب على تصحيح العقيدة الإيمانية وتطهيرها من مظاهر الشرك التي علقت بها وإعادة المسلمين إلى عقيدة [التوحيد] كما وردت في الكتاب والسنة فلا خالق ولا رازق إلا الله، ولما يُدعى إلا الله، ولما يندّر إلا الله، ولما يُستعان ولما يُستغاث إلا بالله [فيما لا يقدر عليه إلا الله ولما يُستعان، ولما يُستغاث بالميت ولما الغائب، تركيزاً عميقاً لدرجة أنه قام بتتبع مجالات تصحيحها ومقاومة صور الشرك في كل كتبه وخُطبه ورسائله وكانت المحور الذي تدور عليه اهتماماته... وقاوم الخرافات والبدع بكل أشكالها من تعظيم القبور والبناء عليها والمجوء إلى الموتى وطلب المدد منهم] لأن هذا وثنية تدخل في باب الشرك إلى ما دون ذلك من بدعة المولد وبدعة المحمل التي روجها الصوفية والرافضة... وفتح باب الاجتهاد - عند تواضع ورسائله - دون تعصب للمذهب... وأحيا [واجب] الحسبة أي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأحيا واجب الجهاد [في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله]. مجموع دار البشير [الدعوة إلى الله على منهج النبوة] 1417 ص 112-108.

وقال: (والحقيقة أن كثيراً من تلامذة جمعية العلماء الجزائريين يسجلون انتماء الشيخ ابن باديس إلى مدرسة محمد بن عبد الوهاب رحمهما الله بشيء من التلقائية وكأنه أمر مقرر لا جدال فيه والأمر نفسه بالنسبة للمؤرخين... وقد اجتمع ابن باديس بعدد كبير من أهل العلم والإصلاح أثناء رحلته إلى المشرق العربي وأدائه فريضة الحج ومنهم الشيخ البشير الإبراهيمي الذي تعرف عليه ابن باديس لأول مرة في حياته في المدينة النبوية حيث كان قد هاجر إليها عام 1910 تقريباً، ومنذ ذلك الحين ارتبطا بصداقة متينة كان من آثارها عقد النية والاتفاق في المدينة - قاعدة السلفية الأولى - على إقامة الحركة الإصلاحية السلفية في الجزائر... والتشابه بل الاتفاق في الأسس والمبادئ بين حركتين من حركات البعث [والتجديد الديني] دليل قوي على تأثر اللاحقة بالسابقة... [فهما متطابقتان في التركيز على إصلاح المعتقد، ومقاومة الخرافات والبدع التي شوهت عقيدة المسلمين] ومقاومة الصوفية المبتدعة؛ فما نكب الأمة في عقيدتها إلا هؤلاء المتصوفة وإخوانهم [من أهل الضلال]، وهما متطابقتان في دعوة المسلمين للرجوع للقرآن والسنة، وتحذير الناس من الأحاديث الموضوعية، وإنكار التوسل والاستغاثة بالأمووات من الأنبياء والأولياء والاعتماد على الله ثم على العمل الصالح في التقرب إلى الله... وهما متطابقتان في المنهج والموضوع والأسلوب، ولدهوتهما الخصائص والسمات نفسها: القوة والجرأة والروح الإيمانية الواثقة، والاستناد إلى الدليل القوي المباشر الواضح المستقوى من كتاب الله وسنة رسوله وفقه الأئمة الأول في الدين). المصدر نفسه ص 115-133.

ز- وكان ممن عرضت من الفئة الثمانية: ثلاثة آخرون معروفون بانتمائهم أو ميولهم الحزبية، ومن مساوئ الحزبية المبتدعة الموصوفة زوراً بالإسلامية أنها تَغشى أبصار الحزبيين عن رؤية الحق خارج حدود أحزابهم وتحتم على أسماعهم فلا يصل إليها إلا ما تهوى

أنفسهم سماعه ولو كان غير المحق:

(1) الأستاذ د. عبد العزيز خياط، وكان يُنمى إلى حزب التحرير، وسمعت منه إطراء هذا الحزب وانتقاص حزب الإخوان بحجة أن التحريين يتبعون فكرة الإخوان يتبعون رجلاً أو فهمت منه أنه يقصد بالفكرة: الخلافة، ويقصد بالرجل: حسن البن، وأرى أن الفكرة مثل الرجل قد تضل - ولو أعجبت المتعلقين بها ولو أعجبهم اللفظ وشرعية أصل الاصطلاح - ولكن الذي لا يضل هو النص من كتاب الله وبيانه من السنة بفهم أئمة الفقه في القرون المفضلة. ولم أجد أثراً وتأثراً بحضوره الندوة إلا بافترائه على أهلها بأنهم يمنعون مولد النبي صلى الله عليه وسلم ويقيمون مولداً لمحمد بن عبد الوهاب، تجاوز الله عنا وعنه.

(2) الأستاذ د. إبراهيم الكيلاني من قادة حزب الإخوان المسلمين في الأردن، وعاد من الندوة دون أن يقدم لها أو يأخذ منها غير ترديد فرية المولد.

الأستاذ يوسف العظم من قادة الإخوان المسلمين ولم يكن مؤهلاً للتأثير أو المتأثر لضعف مستواه العلمي وأهم من ذلك لحزبيته، ورد - هداه الله - فرية زميليه، بل تولى لبّ هذه الفرية بادعائه في مجموع للأستاذ نظام سكهجا (هداهما الله لأقرب من هذا رشداً) عنوانه: (أن الجامعات العلمية المرموقة والمؤسسات المعروفة أقامت مولداً بمناسبة مرور مائة عام على ولادة محمد بن عبد الوهاب).

ولما شك أنه يعلم أنه غير صادق في دعواه (تجاوز الله عنا وعنه) فلم تُعقد الندوة غير مرة واحدة في تاريخ الدعوة والدولة المباركة، ولم يُعقد الندوة غير جامعة واحدة (لا جامعات ولا مؤسسات مرموقة ولا غير مرموقة) فهل كان قصده تضخيم الفرية؟ لا أجد محملاً آخر.

لوعُقدت الندوة بعد مائتين وثمانية وتسعين عاماً من تاريخ ميلاده تقريباً وليس بمناسبة مرور مائة عام على مولده - كما افترى -، ولم تذكر كلمة المولد مرة واحدة (لا مكتوبة ولا منطوقة إلا من قبل مفتريها) لا في الندوة ولا قبلها ولا بعدها في تاريخ الدعوة والدولة المباركة إلا مقرونة بالنهاي عنها؛ لأنها لم ترد في كتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم أمراً ولا فعلاً ولا تقريراً، وليست من سنن الخلفاء الراشدين المهديين ولا أحد من الصحابة ولا التابعين ولا تابعيهم حتى ابتدعها بعض ولاية الفاطميين تقليداً لمولد عيسى عند مبتدعة النصارى، ولم تنه عنها دولة قبل دولة التوحيد والسنة.

أما لمزهم علماء الدعوة المتجددية على منهاج النبوة بالعنف والتكفير فتكذبه جميع كتبهم وأعمالهم وإنما هي فرية أخرى يرددها أعداء السنة (بواقع ابتداعهم وتصوفهم وانحرافهم عن منهاج النبوة إلى مناهج مشايخهم).

وإنما تولى التكفير والهجرة والتفجير والاعتقال بالأحزمة الناسفة والدعوة إلى المظاهرات والإضرابات بعض الأحزاب الموصوفة زوراً بالإسلامية، وكلها أجنبية عن دولة الدعوة الأولى بعد القرون المفضلة بفضل الله ومنه ورحمته.

وقد كتبتُ إلى الأستاذ يوسف هداونا الله وإياه بتاريخ 1420/3/29 وتاريخ 1420/4/16 لعله أن يتبين خطأه فيرجع عنه، ولم يظهر لي من رده على رسالتي الأولى له إلا أنه لا يعي ما أُريد ببيانه من الحق لأن قضاعاته السابقة تحول بينه وبين ما أقول كما حالت بينهم وبين ما قيل وما كتُب في الندوة.

هدى الله الجميع لاتباع هدايه ومخالفة المهو؛ حتى لا يمنعه التركز على الوجه الحزبي لعُملة الحياة عن إدراك الحق والاعتراف بالفضل، وشكر الله على نعمته بالهدى بعد العمى.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه ومتبعي سنته إلى يوم الدين.

كتبه/ سعد بن عبد الرحمن الحصيّن، تعاوناً على البر والتقوى وتحذيراً من الإثم والعدوان. في الرياض - 1426هـ.